الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وآله تاريخها..أهدافها..كيفية التصدي لها

ليلى علي حسين[1]

الخلاصة:

لا يخفى على القارئ الكريم مدى القداسة التي يحظى بها رسول البشرية صلى الله عليه وآله عند المسلمين وعند غيرهم من أرباب الملل والنحل والأديان، وهذا ما أكّدت عليه آيات الذكر الحكيم وروايات الفريقين وممارسات المسلمين. غير أنّه ما يدعو للأسف الشديد الحملات التي وجّهت ضدّ هذه الشخصية المقدّسة عبر التاريخ قديماً وحديثاً، ولهذه الحملات مصاديق كثيرة. وتوجد سبل كفيلة بردّ هذه الهجمات الشرسة؛ كالمقاطعة الاقتصادية للدول المسيئة للرسول صلى الله عليه وآله، والإعلام الصحيح، واستثمار المواهب، وإنتاج الأفلام الوثائقية، وعقد المؤتمرات.

الكلمات الرئيسية: رسول الله صلى الله عليه وآله، الإساءة إلى الرسول صلى الله عليه وآله، سبل الردّ على الإساءة، الدول المسيئة، الإعلام الصحيح.

١. أستاذة في حوزة الإمام الباقر عليه السلام للعلوم والمعارف الإسلامية

مقدمة:

يحظى رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله بمكانة خاصة عند المسلمين، فهو ثاني المقدسات الإسلامية بعد الله (سبحانه وتعالى)، والمسلمون يقدّسون نبيّهم، ومقامه محفوظ عندهم، وكرامته لا تمس، ومكانته لا تدنّس، ولا يجوز عندهم بأي حال من الأحوال المساس بقدسية مقام رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولكنْ تعرّض المقام المقدس لرسول الله صلى الله عليه وآله للإساءة والإهانة عبر التاريخ، فما أهداف هذه الإساءة؟ وكيف يمكن للمسلمين التصدي لها؟ هذا ما ستحاول هذه المقالة طرحه ومعالجته.

أولاً: قداسة مقام رسول الله صلى الله عليه وآله عند المسلمين:

المقدَّس في اللغة: المبارك والمطهّر، فالمقدَّس: شيء مبارك يبعث في النفس احتراماً وهيبة، والمقدِّس: هو المعظِّم والمنزِّه[1].

والله (عزّ وجلّ) هو القدّوس المطلق: "هو الله الذي لا إله إلا هو القدوس"، فالقدوس مبالغة في القدس وهو النزاهة والطهارة[2].

فالله (سبحانه وتعالى) تسبغ عليه القداسة بالأصالة، وتسبغ القداسة بالتبعية على كل تجلٍّ للقدس الإلهي بمقدار ما يكون التجلّي.

ولمّا كان الوجود المقدّس للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله يمثّل التجلّي الأتمّ للأسماء والصفات الإلهية، كان هو المقدّس الثاني بعد الله (عزّ وجلّ)، فنحن نقدّس رسول الله لأنّ أسماء الله وصفاته كلّها تجلّت في الحقيقة المحمدية.

---

١. صحاح اللغة (للجوهري) ٣: ٩٦.

٢. الميزان في تفسير القرآن (للسيد محمد حسين الطباطبائي) ١٩: ٢٢٢.

ثانياً: العنايات القرآنية التي احتفّت بمقام رسول الله ﷺ:

امتلأ القرآن الكريم بالعشرات من الآيات التي يفهم منها إرادة الله (عزّ وجلّ) تركيز قداسة مقام رسول الله ﷺ في عقول المسلمين وقلوبهم، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دنا فتَدلَّى فَكَانَ قَابَ قوْسينِ أو أَدْنى﴾[١].

تتكلم هذه الآية عن شدّة قرب رسول الله ﷺ من الله (سبحانه وتعالى)، فالآية تبيّن أنّ رسول الله محمّداً ﷺ اقترب من الله (عزّ وجلّ) حتّى لم يبق بينه وبين الله سبحانه إلاّ كقاب القوسين بل أدنى من ذلك.

وتعبير "فكان قاب قوسين أو أدنى" كناية عن شدّة القرب، وهذا الاستعمال شائع في لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم؛ وإلاّ فإنّ الله (عزّ وجلّ) ليس جسماً ولا يحلّ في مكان حتّى يتم قياس المسافة بينه وبين رسول الله ﷺ بالقوس والذراع.

والآية فيها كشف جليّ عن مقام رسول الله ﷺ وعظمته، فإذا كان مقياس تكامل الإنسان هو مدى قربه من ربّ العزّة (جلّ جلاله)، فإنّ رسول الله ﷺ وصل في مقامات القرب إلى مقام لم يبلغه ملك مقرّب ولا نبي مرسل، مقام عجز عن بلوغه حتى جبرائيل الذي هو من الملائكة المقربين، "فكما ورد في قصة المعراج أنّه كان يصعد في المعراج مع النبي ﷺ فوصلا إلى نقطة فتوقّف جبرئيل عن الصعود وقال للنبي ﷺ: لو دنوت قيد أنملة لاحترقت، إلاّ أنّ النبي ﷺ واصل سيره وصعوده".[٢]

---

١. سورة النجم: الآية ٨.

٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل (للشيخ مكارم الشيرازي) ١٧: ٢١٥.

٢ ـ الآيات الكثيرة التي يقرن فيها الله (عزّ وجلّ) طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وآله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[١]، ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٢]، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[٣]، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَه﴾[٤]، فطاعة رسول الله هي نفسها طاعة الله لااختلاف بين الطاعتين، فعندما يريد رسول الله صلى الله عليه وآله، شيئاً فإنّ ما يريده هو نفس ما يريده الله (عزّ وجلّ)؛ لأنّ أمر الله ونهيه يتجلّى في رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يجوز مخالفته، ولا يجوز التمرّد عليه ولا الردّ عليه.

٣ ـ بيان عصمته المطلقة من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٥]، فكلّ ما يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله من أقوال وأفعال وتقرير هو طبق الوحي، فلا مجال لحصول الخطأ والاشتباه عند رسول الله صلى الله عليه وآله.

٤ ـ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٦]، في الآية أوامر مهمة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله وطاعته، والدفاع عنه وتعظيم مقامه.

تعزّروه: أي تنصروه وتدافعوا عنه وتعينوه في مقابل أعدائه.

توقّروه: أي تعظّموه وتكرموه.

---

١. النور: ٥٤.

٢. النساء: ٥٩.

٣. آل عمران: ٣٢.

٤. الانفال: ٢٠.

٥. سورة النجم: الآيتان ٣ و ٤.

٦. سورة الفتح: الآية ٩.

٥ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[١]، هذا التّعبير كناية عن أنّ بيعة النبي هي بيعة الله، فكأنّ الله قد جعل يده على أيديهم؛ فهم لا يبايعون النبي فحسب بل يبايعون الله.[٢]

ثالثاً: ممارسات المسلمين في تقديس رسول الله ﷺ حياً وميتاً:

دلَّ تعامل المسلمين مع رسول الله ﷺ حياً وميتاً على تقديسهم له.

قال ابن حجر:"كل مولود ولد في حياة النبي ﷺ يحكم بأنّه رآه؛ وذلك لتوفّر دواعي إحضار الأنصار أولادهم عند النبي ﷺ للتحنيك والتبرّك، حتى قيل: لمّا افتتحت مكة جعل أهل مكة يأتون إلى النبي بصبيانهم ليمسح على رؤوسهم ويدعو لهم بالبركة"[٣]

وجاء في صحيح البخاري عن أبي جحيفة قال:"خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة، فأتى بوضوء فتوضّأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسّحون به[٤]. وقال عروة عن المسوّر وغيره: يصدق كلّ واحد منهما صاحبه، وإذا توضّأ النبي ﷺ كادوا يقتتلون على وضوئه.[٥]

كما أخرج المحدّثون والحفّاظ قصة مجيء عروة بن مسعود الثقفي إلى قريش قبل صلح الحديبية، حيث أدهشه عمل الصحابة مع النبي ﷺ، فقال وهو يحكي ما شاهده من ذلك: لا يتوضّأ وضوءاً إلاّ ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلاّ أخذوه ـ وفي رواية: ـ فوالله

---

١. سورة الفتح: الآية ١٠.

٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ١٦: ٤٤٢ بتصرف.

٣. في ظلّ أصول الإسلام (للشيخ جعفر السبحاني): ١٩٤.

٤. صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب استعمال فضل وضوء الناس ١: ٥٥.

٥. المصدر السابق ١: ٥٥.

ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وآله نخامة إلاّ وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه[١].

وعلى هذا سار المسلمون في تقديس رسول الله صلى الله عليه وآله حتى بعد وفاته، فعن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي صلى الله عليه وآله أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس، قال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.[٢]

وروى أبو بكر بن أبي شيبة في المصنّف عن زيد بن الحباب قال: حدّثني أبو مودود قال: حدّثني يزيد بن عبد الملك بن قسيط قال: رأيت نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى رمّانة المنبر ـ منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ـ القرعاء فمسحوها ودعوا.[٣]

وذكر الخطيب ابن جماعة أنّ عبد الله بن عمر كان يضع يده اليمنى على القبر الشريف، وأنّ بلالاً وضع خدّيه عليه أيضاً[٤].

وأخرج الحافظ ابن عساكر في التحفة من طريق طاهر بن يحيى الحسيني قال: حدّثني أبي، عن جدي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي قال: «لمّا رُمس رسول الله صلى الله عليه وآله جاءت فاطمة عليها السلام فوقفت على قبره، وأخذت قبضة من تراب القبر ووضعتها على عينيها وأنشأت تقول:

ماذا على من شمَّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صبّت عليَّ مصائب لو أنّها صبّت على الأيام صرن لياليا»[٥]

---

١. المصدر السابق ٣: ١٨٠.

٢. المصدر السابق، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يغسل شعر الإنسان ١: ٥١.

٣. المصنّف (لابن أبي شيبة) ٤: ٥٥٧.

٤. سبل الهدى والرشاد (للصالحي الشامي) ١٢: ٣٩٨.

٥. سبل الهدى والرشاد (للصالحي الشامي)١٢: ٣٣٧.

وها نحن نرى اليوم البقعة التي تحوي القبر المقدّس لرسول الله صلى الله عليه وآله مهوى أفئدة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وانتماءاتهم يؤمّونها من مشارق الأرض ومغاربها، يتحمّلون الصعاب وعناء السفر وبعد الطريق ليقرّوا عيونهم برؤية القبة الخضراء المنوّرة، دافعهم الحب الجمّ الذي تختزنه قلوبهم لنبيّهم الكريم الذي بواسطته دخل نور الإسلام إلى أرواحهم، وكلّهم رجاء أن تنالهم شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله فيقبلهم الله ويغفر لهم ذنوبهم بمجيئهم لحبيبه المصطفى وتقديمه بين يدي حاجاتهم إلى الله تعالى.

وقد بلغ من توقير المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وآله وتعظيمه وتكريمه بعد مماته حداً أنّهم كرّموا اسمه وعظّموه، فها هم أئمة أهل البيت عليهم السلام يحثّون أصحابهم على تكريم أبنائهم إذا أطلقوا عليهم اسم "محمد"؛ وذلك كرامةً لرسول الله صلى الله عليه وآله، فعن أبي هارون أنّه قال: "كنت جليساً للصادق عليه السلام بالمدينة ففقدني أياماً، ثمّ إنّي جئت إليه فقال لي: «لم أرك منذ أيام يا أبا هارون!»، فقلت: وُلد لي غلام، فقال: «بارك الله فيه، فما سمّيته؟»، قلت: محمداً، فأقبل نحو الأرض وهو يقول: «محمدٌ محمدٌ محمدٌ» حتّى كاد يلصق خدّه بالأرض، ثم قال: «بنفسي وبولدي وبأمي وبأبويَّ وبأهل الأرض كلّهم جميعاً الفداء لرسول الله. لا تسبّه ولا تضربه ولا تسئ إليه، واعلم أنّه ليس في الأرض دار فيها اسم محمد إلاّ وهي تقدّس كلّ يوم»[1].

ومن أبرز مصاديق تقديس المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد مماته هو عملية الصلاة عليه بمجرد ذكر اسمه الشريف صلى الله عليه وآله، وما ذلك إلاّ امتثالاً منهم لأمرٍ إلهي ورد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[2]، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا ذُكر النبي فأكثروا الصلاة عليه؛ فإنّه

١. الكافي (للكليني) ٦: ٣٩.

٢. سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

من صلّى على النبي صلاة واحدة صلّى الله عليه ألف صلاة في ألف صفّ من الملائكة، ولم يبق شيء ممّا خلق الله إلاّ صلّى على العبد لصلاة الله عليه وصلاة ملائكته، فمن لم يرغب في هذا فهو جاهل مغرور، قد برأ الله منه ورسوله وأهل بيته»[١].

رابعاً: الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وآله وانتهاك قدسيّته عبر التاريخ:

يمكن لنا أن نضع الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وآله وانتهاك قدسيّته في صورة مسلسلٍ بدأت أولى حلقاته يوم جهر صلى الله عليه وآله بدعوته أمام الملأ، ولا زالت حلقات هذا المسلسل مستمرة إلى يومنا هذا.

فمنذ اليوم الأول الذي أعلن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله دعوته وصرّح للناس أنّه رسول من عند الله تعالى للناس كافة، انهالت الإساءات عليه من المستكبرين والمترفين الذين عرفوا أنّ دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ستكون حائطاً يقف أمام منافعهم الدنيوية وأهوائهم ومصالحهم الشخصية.

وكان أول من بدأ مسلسل الإساءة هذا هو المشرك المستكبر عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله "أبو لهب بن عبد المطلب"، فعندما صعد الرسول صلى الله عليه وآله على الصفا وأعلن دعوته للملأ، تملّك قريش الخوفُ هذه المرة، وهي تسمعُ ذلك الإنذار القويّ، فبادر أحد قادة الكفر وهو أبو لهب إلى تبديد تلك المخاوف فوراً، إذ قال لرسول اللّه صلى الله عليه وآله: تبّاً لك! ألهذا دعوتنا ؟، وتفرّق على أثرها الناس[٢].

ويخبرنا التاريخ أنّ أبا لهب كان يتّبع النبي صلى الله عليه وآله غالباً كالظل. وما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلاّ سلكه، وكان يذكره بأفظع الألفاظ، ومن هنا كان أشدّ أعداء الرسول والرسالة، وقد كان ثرياً ينفق أمواله في محاربة النبي صلى الله عليه وآله.

---

١. الكافي (للكليني) ٢: ٤٩٢.

٢. تاريخ الطبري ٢: ٦٢.

وكانت أم جميل ـ امرأة أبي لهب وأخت أبي سفيان وعمة معاوية ـ تأخذ الحطب المملوء بالشوك وتضعه على طريق رسول الله ﷺ لتدمي قدميه[١].

وكانا يلقيان التراب والرماد على رأسه الشريف.

وهكذا دأب مشركو مكة ومستكبروها ومترفوها على الإساءة للمقام الأقدس لرسول الله ﷺ ومحاولة الاستنقاص من قدره والحطّ من مكانته للوصول عبر هذه الوسيلة الدنيئة لأهدافهم ومآربهم.

فها هو "أبو جهل" يمرّ برسول اللّه ﷺ عند الصفا، فيؤذيه ويشتمه وينال منه ببعض ما يُكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلّمه رسول اللّه ﷺ.[٢]

ويُروى أنَّ النبيّ ﷺ كان يطوف ذات يوم فشتمه "عقبة بن أبي معيط" وألقى عمامَته في عنقه، وجرّه من المسجد، فأخذوه من يده خوفاً مِن بني هاشم[٣].

ثم لمّا أعيتهم الحيلة في رسول الله ﷺ، نراهم يجتمعون في دار الندوة ليتباحثوا في أمره وأمر دعوته التي كانت تنتشر بصورة سريعة ومذهلة، فتستقر مشاوراتهم على تشويه سمعة رسول الله ﷺ عبر اتّهامه بمجموعة من التهم الباطلة؛ حتى يشوّشوا مكانة رسول الله ﷺ في أذهان الناس فينفضّوا عنه، فاتّهموه بالجنون وبالسحر وبالكهانة وغير ذلك.

ويتواصل مسلسل الإساءة لرسول الله ﷺ وإهانة شخصه الكريم عبر تيّار النفاق في المدينة المنوّرة، فمرّة يتّهمونه بأنّه "أذن" أي شخصية بسيطة تصدق سريعاً كلّ ما يقال لها، يذكر التاريخ أنّ جماعة من المنافقين كانوا يذكرون النبي ﷺ بسوء، فنهاهم أحدهم وقال: لا تتحدّثوا بهذا الحديث؛ لئلاّ يصل إلى سمع محمدٍ فيذكرنا بسوءٍ ويؤلّب الناس علينا، فقال

---

١. الأمثل (للشيرازي) ٢٠: ٥٣٩.

٢. سيد المرسلين (للشيخ جعفر السبحاني):

٣. المصدر السابق.

أحدهم ـ واسمه جلاس ـ لا يهمّنا ذلك، فنحن نقول ما نريد، وإذا بلغه ما نقول سنحضر عنده وننكر ما قلناه، وسيقبل ذلك منّا فإنّه سريع التصديق لما يقال له، ويقبل كل مايقال من كل أحد؛ فهو أُذُن، فنزلت الآية الشريفة لتجيب عليهم: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

ومن مظاهر إيذائهم لهﷺ لمزه في الصدقات، كما جاء من أنّ النبيﷺ كان مشغولاً بتقسيم الأموال (من الغنائم أو ما شاكلها) وإذا برجل من بني تميم يدعى ذا الخويصرة ـ وهو حرقوص بن زهير ـ يأتي فيقول له: يا رسول الله، اعدل، فقال رسول الله: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل!» فصاح عمر: "يا رسول الله، ائذن لي أضرب عنقه"، فقال رسول الله: «دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلواتهم، وصومه مع صومهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة»، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ﴾[2]

فالمنافقون حاولوا تشويه صورة شخصية رسول اللهﷺ بتصويره شخصاً عاديّاً يقسم الغنائم والزكاة وفقاً لأهوائه الشخصية.

ويستمر مسلسل الإساءة لرسول اللهﷺ لتستقر حلقاته عند الأمويين، ففي الوقت الذي مُنع فيه تدوين ورواية سنّة رسول اللهﷺ، نشط وضع الحديث ونسبته زوراً إلى رسول اللهﷺ، خصوصاً في عهد الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، وكان من ضمن

---

١. الأمثل (للشيرازي) ٦: ١٠١، والآية ٦١من سورة التوبة

٢. الأمثل (للشيرازي) ٦: ٨٨ والآيتان ٥٨ و ٥٩ من سورة التوبة.

تلك الأحاديث أحاديث تسيء لرسول الله وتصوّره كشخصيّة عاديّة، بل إنّه يفعل أموراً تأباها الأنفس المحترمة، وللأسف تستقر هذه الأحاديث في بطون كتب إسلامية من دون تمحيصها ونقدها وعرضها على العقل والقرآن.

فها هو صحيح البخاري يحتوي على أحاديث من هذا النوع، نذكر منها مثلاً:

١ـ حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب؛ وحدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر: قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة (رضي الله عنها) أنّها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوّده لمثلها، حتى فجئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال له النبي ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ـ وهو ابن عم **خديجة** أخو أبيها، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت له خديجة: أي ابن عم!

اسمع من ابن أخيك، فقال **ورقة**: ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً أكون حياً حين يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أوَ مُخرجيّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاّ عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً. ثم لم يلبث **ورقة** أن توفّي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد! إنّك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك. قال ابن عباس: "فالق الإصباح": ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل[١].

فالرواية تصوّر رسول الله ﷺ على أنّه شخص غير سويّ ومختلّ من الناحية النفسية بحيث إنّه يفكر في الانتحار، بل ويقدم عليه كلما تأخّر عنه الوحي!

٢ـ حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو أسامة، حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: سُحر رسول الله ﷺ[٢]. وجاء في كتاب صحيح البخاري: عن عائشة قالت: سُحر النبي ﷺ حتى كان يخيّل إليه أنّه يفعل الشيء وما يفعله[٣].

فهل يتفق كون النبي ﷺ رسولاً يوحى إليه وعليه واجبات إلهية جسيمة أوّلها إبلاغ الوحي للناس مع كونه يُسحَر فمايدري يفعل الشيء أو ما يفعله؟!

---

١. صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٨: ٦٨.

٢. صحيح مسلم، كتاب السلام، باب السحر ٧: ١٤.

٣. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٤: ٩١.

٣ـ حدثنا آدم قال: حدثنا شعبة عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال: أتى النبي ﷺ سباطة قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فجئته بماء فتوضّأ[١].

فهل هناك من تشويه لمقام النبي ﷺ أكبر من تصويره بهذه الصورة القبيحة التي تأنفها الأخلاق السويّة، ثم وضعه بموضع من ينهى عن الفعل ويأتي بمثله؟!

٤ـ حدثنا محمد بن بشّار قال: حدثنا معاذ بن هشام قال: حدثني أبي عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهنّ إحدى عشرة، قال: قلت لأنس: أوكان يطيقه؟ قال: كنّا نتحدث أنّه أعطي قوة ثلاثين[٢].

وعن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: إنّ رجلاً سأل رسول الله عن الرجل يجامع أهله ثم يكسل، هل عليهما الغسل؟ وعائشة جالسة، فقال رسول الله ﷺ: إني لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل[٣].

وهذا مساس صريح وتجرّؤ كبير على المقام الأقدس لرسول الله ﷺ، وعبث بقداسته، وحطّ من كرامته، وتصويره بصورة ماجنة خادشة للحياء والعفة!

ولم يتوقف مسلسل الإساءة لرسول الله ﷺ في عصرنا الحديث بل استمرّت حلقاته، فنسجّل هنا مجموعة من الإساءات لشخص رسول الله ﷺ:

*في سنة ١٩٨٨م يصدر سلمان رشدي كتابه المسيء آيات شيطانية.

*وفي سنة ٢٠٠٤م أخرج الهولندي «تيو فان جوخ» فلماً مسيئاً، فكان جزاؤه القتل.

*وفي سنة ٢٠٠٥م قامت صحيفة دنماركية بنشر صور مسيئة للنبي ﷺ على إثر مسابقة أعلنت عنها.

---

١. المصدر السابق، كتاب الوضوء، باب البول قائماً وقاعداً ١: ٦٢.

٢. المصدر السابق، كتاب الغسل، باب إذا جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد ١: ٧١.

٣. صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب نسخ الماء من الماء ووجوب الغسل للتقاء الختانين ١: ١٨٧.

*وفي عام ٢٠١٢م أقدمت صحيفة فرنسية على نشر رسوم كاريكاتيرية مسيئة لرسول الله ﷺ.

*وفي نفس العام تقدم أمريكا على إنتاج فلم سينمائي مادته الإساءة لرسول الإسلام ﷺ.

خامساً: أهداف الإساءة لرسول الله ﷺ:

المتتبّع لمسلسل الإساءة لرسول الإسلام محمد ﷺ يكتشف أنّ هذا العمل لم يكن عملاً فردياً أو شخصياً، وإنّما هو عمل تقف من ورائه كيانات وتدعمه دول، ودوافعه سياسية واقتصادية، فقريش كانت تخشى على كيانها الوثني من دعوة رسول الله ﷺ؛ ولأنّ أسياد قريش كانوا يرون بأمّ أعينهم النجاح الباهر الذي يحققه رسول الله ﷺ يوماً بعد يوم فالناس تدخل في دين الله آحاداً وجماعات، وكانوا يشهدون نجاح هذا الداعية القدير في إخراج دعوته خارج أسوار مكة مستغلاً موسم الحج؛ مما أدى إلى انتشار ذكر الإسلام في شبه الجزيرة العربية حاملاً معه اسم رسول الله ﷺ. ولمّا فشلت قريش في الوقوف في وجه إنجازات رسول الله ﷺ ومقارعة حجّته بالحجة ودليله بالدليل، عمدوا إلى هذه الوسيلة الرخيصة والهابطة والتي تكشف عن إفلاس صاحبها ورعونة تفكيره وافتقاده لأدنى درجات الأخلاق الفاضلة؛ ألا وهي تشويه صورة رسول الله ﷺ والمساس بشخصيته والإساءة له؛ حتى ينفضّ الناس عنه ولا يستمعوا لكلمة الحق التي تخرج من فمه، وبالتالي تفشل دعوته فلا تعود خطراً يهدد مصالحهم.

ولم تختلف أهداف ومآرب تيار النفاق الذي سعى لتشويه سمعة رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة، فالمصالح الدنيوية والأهداف الشخصية هي المحرك الأساس لهؤلاء.

وأمّا الأمويون الذين كانوا منغمسين في ملذات الدنيا ولا همّ لهم في الحياة إلاّ إرضاء غرائزهم وشهواتهم فقد كانوا يخشون غضب الناس وثورتهم عليهم نتيجة لأفعالهم الشائنة؛

لذلك عمدوا إلى تشويه صورة رسول الله ﷺ عبر تصويره كشخص ماجن شهوي ـ والعياذ بالله ـ كل ذلك ليقنعوا الناس بأنّهم في تصرفاتهم مقتدون بنبيّهم الذي كان يمارس ما يمارسونه فيضمنون سكوت الناس عنهم، ولا تنطلق ضدّهم صيحات الاستنكار المحركة للثورة والانتفاضة المزعزعة لملكهم وكرسيّهم.

وهكذا كانت الإساءات التي انطلقت في عصرنا هذا، فالغرب يشهد اليوم النماء المضطرد للإسلام، وانجذاب الكثير من الناس حول العالم للدين الإسلامي وتأثّرهم به ودخولهم فيه اقتناعاً بأفكاره وقيمه الرّاقية، مضافاً إلى تجدّد الصّحوة الإسلامية لدى الشعوب الإسلامية، وعودة الأجيال المسلمة إلى التمسك بالإسلام والنظر له على أنّه المنهج السماوي القادر على تخليصهم من مشاكلهم ومعاناتهم، وقد تبلورت هذه الصحوة الإسلامية في ثورات الربيع العربي التي شهدت وصول تيّارات إسلامية إلى الحكم خلفاً لتيّارات علمانية عميلة للغرب وتابعة له، ولمّا كانت الصحوة الإسلامية تمثّل خطراً يهدد المصالح الغربية في المنطقة لأنّه يعني رفض الشعوب المسلمة للهيمنة الأمريكية والغربية واستحواذها على ثرواتها ومقدّراتها من النفط وغيره، أقدمت الدول الغربية على السكوت عن جريمة الإساءة لشخص رسول الإسلام ﷺ بل وتشجيعها؛ رغبةً منها في تشويه صورة الإسلام، وإيقاف مد الصحوة الإسلامية العارم عبر تشويه صورة شخصية رسول الله ﷺ، وإيجاد صورة بائسة مشوّهة لشخصه العظيم تنفر منها النفوس وتترسخ في عقول الناس وعلى الخصوص الفئة الشبابية.

جاء في البيان الذي أصدره سماحة السيد القائد الخامنئي (دام عزه) بمناسبة الإساءة الأمريكية الأخيرة لمقام رسول الله ﷺ: "واليوم كذلك، إنّ الأيادي الآثمة لأعداء الإسلام كشفت مجدداً عن حقدها من خلال إساءتها للنبي الأكرم ﷺ، وأظهرت من خلال القيام

بحركة جنونية ومقيتة استياء الصهيونية الخبيثة حيال التلألؤ المطرد للإسلام والقرآن في العالم .

وأدلّ دليل على فضيحة المتورطين في هذه الجريمة والوزر العظيم هو استهدافهم لأكثر الشخصيات إشراقةً وقداسةً في العالم من خلال ترّهاتهم المقيتة .

السياسة العدائية للصهيونية وأميركا وسائر قادة الاستكبار العالمي هي التي تقف وراء هذه الحركة المقيتة، أولئك الذين يتصورون عبثا أنّ بإمكانهم النيل من المكانة الرفيعة للمقدسات الإسلامية لدى الجيل الصاعد في العالم الإسلامي وإخماد جذوة مشاعرهم الدينية"[١].

ولعل سكوت الحكومات الغربية بل وقيامها بتشجيع هذه الإساءات، لهو أكبر دليل على كونها ليست مجرد محاولات شخصية ولأهداف خاصة، بل هي إساءات تخدم الإمبريالية الغربية والصهيوأمريكية، فها هي ملكة بريطانيا "إليزابيث الثانية" تقوم بمنح المرتد سلمان رشدي لقب "فارس" تقديراً لخدماته في مجال الأدب[٢]. ونحن نسأل: هل رصيد هذا المرتد النكرة الأدبي يؤهله لمنح هذا الوسام؟! أم أنّ هذه الخطوة عبارة عن استفزاز واضح لمشاعر أكثر من مليار مسلم، وتشجيع سافر من قبلهم لأي محاولة مستقبلية لأي شخص سيقدم على هذا الأمر بأنّه سيحصل على حماية الدولة البريطانية، بل وسيحظى بتكريم ورعاية الملكة شخصياً؟!

وعلى نفس الخط يبرر الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" في كلمته التي ألقاها أمام الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة الفلم الأمريكي المسيء لرسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه يعبّر عن

١. بيان السيد القائد الخامنئي، موقع قناة المنار على شبكة الإنترنيت.

٢. موقع قناة الجزيرة على شبكة الإنترنيت.

حرية الرأي والتعبير! فيقول:" هنا في الولايات المتحدة يوجد عدد لا يحصى من المطبوعات المثيرة للاستياء. ومثلي فإنّ غالبية الأمريكيين هم مسيحيون، ومع ذلك فإننا لا نحظر الكفر بأقدس معتقداتنا"[1].

سادساً: واجب المسلمين في الدفاع عن نبيهم ﷺ:

كل المعايير العقلية والشرعية والخلقية توجب على كلّ مسلم الدفاع عن الوجود المقدّس لرسول الله ﷺ، فنداء ﴿**لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[2] موجّه لكل مسلم كوجوب عيني لا يعفى منه مسلم ولا مسلمة، فكل مسلم واجب عليه الدفاع عن نبيّه الكريم حسب قدرته وبكل الوسائل والأدوات المتاحة عنده .

وسنحاول هنا أن نوجز بعضاً من طرق دفاع المسلمين عن النبي ﷺ:

١ـ المقاطعة الاقتصادية لكل الدول التي تصدر منها الإساءة لرسول الله ﷺ؛ وذلك بالامتناع عن شراء بضائعهم وسلعهم أو السفر إليهم.

٢ـ إشعال الشارع الإسلامي غضباً لرسول الله ﷺ؛ عبر الخروج بمظاهرات والقيام بالفعاليات المختلفة من مهرجانات وتجمّعات وغيرها، مع وجوب الحفاظ على دماء وأعراض الأبرياء، فالدفاع عن رسول الله ﷺ لا يعني قتل الأبرياء وانتهاك حرماتهم، فهذا لا يخدم القضية بتاتاً بل يسيء لها أيّما إساءة.

٣ـ تحمّل وسائل الإعلام التابعة للدول الإسلامية لمسؤوليتها كمنبر للمسلمين؛ وذلك عبر تخصيص برامج منوعةً، الهدف منها تعميم ثقافة الاستنكار ضد هذه الإساءات والرد عليها.

---

١. موقع قناة العربية على شبكة الإنترنت.

٢. سورة الفتح: الآية ٩.

٤ ـ قيام منظمة المؤتمر الإسلامي ـ كجهة رسمية ممثلة للمسلمين ـ بإصدار قوانين ملزمة لكل الدول الإسلامية؛ باتخاذ مواقف صارمة تمنع من تكرار هذه الإساءات.

٥ ـ استخدام كل مسلم للمواهب التي أنعم بها عليه الله (عزّ وجلّ) من أجل نصرة نبيّه والدفاع عنه؛ وذلك بإبراز الوجه الناصع والمشرق لرسول الإسلام محمد صلى الله عليه وآله كشخصية إنسانية راقية متكاملة ـ خصوصاً من الناحية الأخلاقية والعملية ـ قدّمت خدمات جليلة للبشرية جمعاء، وأنّه رسول حبّ وأمن وسلام لجميع الناس، وليس كما يحاول المسيؤون تصويره من أنّه رجل مهووس بالجنس وهمجي ومتعطش لسفك الدماء والعياذ بالله! فعلى كل مسلم أن ينصر نبيّه بالموهبة المتاحة عنده بالكتابة أو الشعر أو النثر أو الرسم أو الخطابة وغير ذلك.

٦ ـ استخدام وسائل الإعلام المعاصرة ـ كالمنتديات الإلكترونية والمدونات الشخصية ووسائل التواصل الاجتماعي كالفيس بوك وتويتر والواتساب والإنستغرام ـ من أجل هذا الهدف.

٧ ـ إنتاج الأفلام الوثائقية والسينمائية والمسلسلات التي تحكي السيرة العطرة والميمونة لرسول الله صلى الله عليه وآله؛ وذلك بأسلوب حضاري مشرّف.

٨ ـ على مسلمي المهجر والذين يتواجدون في البلاد غير الإسلامية تعريف الناس هناك بشخصية رسول الله صلى الله عليه وآله الحقيقية؛ وذلك بوسائل وأساليب حضارية، كتوزيع مصاحف مترجمة، أو كتيّبات تحتوي على كلمات وأحاديث للرسول صلى الله عليه وآله، والآراء الإيجابية حول شخصيته الكريمة والتي صدرت من قبل شخصيات عملاقة في الفكر والثقافة والسياسة.

٩ ـ عقد مؤتمرات الهدف منها جلوس علماء الطائفتين الكريمتين على طاولة البحث من أجل تنقيح وتمحيص وتصحيح كتب الحديث من الشوائب التي علقت بها، خصوصاً

إذا علمنا بأنّ المسيئين يتبجّحون بأنّهم يستقون مادة إساءتهم من المصادر والكتب الإسلامية نفسها، فهذا "سام باسيل" مخرج الفلم السينمائي المسيء يصرح قائلاً: "إنّه استند في تجسيد شخصية الرسول إلى الكتب والمراجع الإسلامية المعروفة التي تكلمت عن حياته"[١].

١٠ ـ إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف على أوسع نطاق وبأبهى صورة، واستغلال هذه المناسبة الإسلامية العريقة كمناسبة للوحدة بين المسلمين ورصّ الصفوف ونبذ الخلافات حتى نكون جبهة واحدة متماسكة، فلا يطمع فينا طامع ولا تسوّل لأي جهة نفسها بالتطاول على مقدّساتنا.

الخاتمة:

إنّ الإساءة للوجود المقدس لرسول الله ﷺ انطلقت عبر التاريخ وإلى يومنا من أسباب انتقامية ورغبةً في حجب بهاء شخصية رسول الله ﷺ للوصول لمآرب ومصالح سياسية ومنافع مادية، ولكنْ إنما مَثَل مفتعِل هذه الإساءات كمثل من يحاول أن يغطّي قرص الشمس بإصبعه! فهو يوهم نفسه بأنّه تمكن من حجب نور الشمس عن الوصول للناس ومنعهم من الاستفادة منه بينما الشمس موجودة تنشر ضياءها وعطاءها للجميع، وهذه هي حقيقة رسول الله ﷺ، فمهما حاول شانئوه طمس مناقبه وفضائله لمنع الناس من الاستضاءة بها والانتفاع بها تدخلت يد العناية الإلهية لتثبت بأنّ محمداً ﷺ مرفوع الذكر من قبل قوة لا تقهر وإرادة لا تحجب، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٢]، فاسم الرسول الخاتم ﷺ مقترن باسم الله (عزّ وجلّ)؛ فكلّما ذكر اسم الله ذكر معه اسم رسوله، وكلّما أقررنا لله بالإلوهية

١. موقع الوطن على شبكة الإنترنيت.

٢. سورة الانشراح: الآية ٤.

أقررنا لنبيه الكريم بالرسالة، وقد روي عنه في تفسير هذه الآية: قال لي جبرائيل: قال الله (عزّ وجلّ): «إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي»[١].

١. سبل الهدى والرشاد (للصالحي الشامي) ١: ٤٦٦ و٩: ٣٣٨ و١٠: ٣٢١.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر قم.

٣. الميزان في تفسير القرآن، العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، نشر موسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، قم.

٤. في ظلّ أصول الإسلام، الشيخ جعفر السبحاني، نشر مؤسّسة الإمام الصادق، قم، ١٤١٠هـ

٥. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، نشر دار الفكر، بيروت.

٧. المصنّف، لابن أبي شيبة (ت٢٣٥هـ)، تحقيق سعيد اللحّام، نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٨. الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٩هـ)، تحقيق علي أكبر الغفاري، نشر دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة، ١٣٦٧هـ.

٩. سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي (٩٤٢هـ)، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمّد معوّض، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٠. صحاح اللغة، الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور العطّار، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.

١١. تاريخ الطبري، محمّد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، نشر مؤسّسة الأعلمي، بيروت.

١٢. سيد المرسلين، الشيخ جعفر السبحاني، نشر مؤسّسة الإمام الصادق، قم.

١٣. مواقع متفرقة على الإنترنيت:

* موقع قناة المنار www.almanar.com.lb

* موقع قناة الجزيرة www.jazeeraairways.com

* موقع قناة العربية www.alarabiya.net

* www.elwatannews.com